



فهم الطبيعة الانسانية

للدكتور ألفرد ادلر العالم النمساوي

[الدكتور ألفرد ادلر من أكبر علماء النفس في النمسا وهو طبيب وباحث نفسي. ومع انه يُعد من أتباع فروود فقد غير تعاليم تلك المدرسة التي أسسها فروود والتي تذهب الى تقرير ان خلق الانسان وسلوكه مرتبطان بحياته الجنسية . فالدكتور ادلر لا يرى العوامل الجنسية وحدها كافية ان تدفع الانسان الى حياة محتومة عليه بل يرى ان الخلق والسلوك نتيجة لعوامل اكبر تعقيداً من العوامل الجنسية فهو يتسقى في دروس هذه العوامل ويردها الى سبي الطفولة وبما يؤثر فيها . وعنده ان كل شقاء الرجولة او نجاحها منوط في المقامة التي يعامل بها الطفل او ما ينطج في نفسه منها . والطفولة عالم عظيم مجهول في نفس الطفل تعرك اشد الاحساسات اضطرأماً واكثرها خطراً أيبدون ان يجد من يفهمه . وهذا الاهمال او تشجيع احساس معين هو الذي يقرر مصير الانسان

وقد قضى الدكتور ادلر ١٥ سنة يبحث ويختبر هذه النظرية ولهذا اسس في المدارس في فينا « الميادات النفسية للاطفال » ووضع تلاميذه ومساعديه لتدوين نتيجة هذه الاختبارات العلمية . وقد تناول هذه الاختبارات النفسية وبسطها للناس في شكل محاضرات القاها على الوف من المستمعين في فينا . ثم طبها في كتاب مستقل ترجم الى اكثر لغات العالم ونحن نوجه نظر وزارة المعارف الى أفكار الدكتور ادلر لانها حقيقة بالدرس وخليفة ان تؤثر في نظم التعليم وبرامجيه . وسنلخص كل محاضراته تباعاً في « المقطع »]

لماذا يوجد شيء اسمه علم النفس ؟ هل الغاية ان تزيد عدد الخبراء في العالم فيكون لنا خبراء في علم النفس كما ان لنا خبراء في الطب والمعادن والفلسفة مثلاً ؟ هكذا يفتح الدكتور ادلر بحثه ليقول ان غاية علم النفس ان يتعلم كل انسان شيء من فهم الطبيعة الانسانية كواجب لا بد منه في الحياة . فاذا كان لا بد من الخبرة والاختصاص في هذه الناحية من العلم فيجب الا تكون النتائج العلمية وفقاً على الخبراء بل ملكاً عاماً للناس وذلك لان اكبر مصائب الانسانية هي نتيجة جهل الانسان بمن حوله . ثم سوء حكمه عليهم لانه مجهلهم . والناس الآن يعيشون في عزلة خطيرة — عزلة كانت في الصور السالفة مستحيلة اذ كانوا اكثر احتلاطاً منهم اليوم . تمنع الآن قليلو الصلات بالانسانية لاتا منذ طفولتنا معزولون عن الغير والحياة العائلية هي التي تضرب علينا نطاق هذه العزلة

ولكن ضرورات الحياة تحمّ عيننا ان نتقرب منهم لكي نفهمهم . يجب ان نطمئن الى الغير لكي نفهم ما يجري في ضمائرهم وتتطوي عليهم نفوسهم لان العزلة وقلة الاختلاط باخواتنا من الناس تدفع بنا الى كراحتهم وحبائهم اعداء لنا . فسلوكنا نحو الغير — وبالضرورة حكماً عليهم — يقوم على الخطأ لاننا لانفهم الطبيعة الانسانية فهماً كافياً . ومن الحقائق التي اصبحت مألوفاً لكثرة تكرارها ان الناس يجتمعون معاً ويتحدثون ولكنهم يظلون في عزلة لانهم يختلطون وكل فرد ينظر الى الآخر كغريب مجهول لاني المجتمع فقط بل في دائرة الحياة العائنية الضيقة النطاق . ولا توجد شكاة اكثر من ترددها اكبر من الشكوى من ان الآباء لا يفهمون الابناء وان الاولاد غير مفهومين من والديهم

ان سلوكنا نحو الغير يقوم على مقدار فهمنا لهم تتحن امام ضرورة محنومة تقضي ان نفهم الغير — هذا الفهم الذي هو الاساس الحقيقي للعلاقات الاجتماعية والناس كفيولون ان ينشئوا مجتمعاً تسوده الالفة اذا اتسعت معارفهم لفهم الطبيعة الانسانية

ولكن كيف السبيل الى درس الطبيعة الانسانية ووضع علم حقيقي لسائل نفسية مفقدة؟ يقول الدكتور ان العلوم الطبية تعنى في هذا الصدد . فالتطبيب النفسي^(١) اصبح علماً يتطلب معارف نفسية واسعة النطاق . فالعالِم بالتطبيب النفسي يجب ان ينفذ بصره الى اعماق اعماق نفسية المريض العصبي الذي يستشير . ويجب ان يكون حكيماً سريعاً ودقيقاً في آن واحد . ففي هذه الناحية من العلوم الطبية لا يستطيع الانسان ان يصدر حكماً ويصف العلاج ويرتب طرائق العيشة الا اذا كانت معرفته بخفايا النفس وما تطوي عليه اكيده وتامة . وكل خطأ في هذا الصدد متبوع حتماً بقاب عاجل وفهم العملة على حقيقتها متبوع حقاً بنجح العلاج . وبعبارة اخرى ان علم التطبيب النفسي يعطينا امتحاناً صحيحاً في فهم الطبيعة الانسانية . وفي الحياة المادية لا يستلزم ان يكون الحكم الخاطي في فهم الغير متبوعاً حتماً بنتائج شيرة لدهشة والعجب لان النتائج قد تحمي به بعد فترات طويلة من تاريخ الخطأ فتضيع الصلة بين الخطأ ونتائج . ومن هنا عجبنا وبهشنا اذ نكتشف خطأنا في فهم نفسية انسان آخر وحكماً عليه . ولهذا كان فهم الطوائف الانسانية واجباً لازماً وضرورة لا مفر منها

وابحاثنا في الامراض العصبية دلنا على ان الترائب النفسية والتعقيدات والاعلاط التي تصحب عادة هذه الامراض ليست مغايرة في حقيقتها وجوهرها مغايرة بمدة الاثر للعوارض والظواهر التي تلم بالانسانية المادية . فالعوامل نفسها والمفردات نفسها ونفس النشاط في الحالتين — الاعلاط نتيجة الامراض العصبية والاعلاط التي تصدر من اشخاص عاديين — واحدة وكلاهما مادة للدرس والتحقيق في فهم الطبيعة الانسانية . والفرق

(١) لعل اقرب ترجمة لفظ Psychiatry هي « علم التطبيب النفسي »

الوحيد هو أن في الأمراض النفسية تبدو هذه الاغلاط واضحة مكبرة وتصبح اكثر قابلية للخضوع للدرس والتفسير . وقيمة هذا الاكتشاف خطيرة اذا اتنا من الحوادث الشاذة وغير المألوفة تعلم كيف نبحت ونهتدي الى مصادر الخطأ وبواعث اللوكة في الحياة العادية المألوفة . والمألة كلها مسألة تدريب وصبر للوصول الى هذه الغاية

والاكتشاف الاول العظيم الذي وقع عيه الباحثون هو هذا : ان اكبر العوامل التي تكون الحياة النفسية تخلق في اول ايام الطفولة . ولم يكن هذا الاكتشاف — كما اكتشاف سنكل — بعيد الأثر . فقد وقع كثيرون في الصور الماضية على شيء من هذا الاكتشاف ولكن الجديد فيه هو اننا اصبحنا قادرين ان نربط اختبارات الطفولة ومؤثراتها ونوازعها — على قدر ما يتيسر — لنا من طرائق الحكم عليها وتقديرها — بمظاهر الحياة النفسية كما تتضح بعدئذ في ابلان الحياة ، في شكل واحد لا يتغير . وهذه الطريقة يسهل لنا ان نقابل بين اختبارات الطفولة ونوازعها وبين الاختبارات والنوازع التي نحجيء مع حياة الرجولة . وخطورة الاكتشاف في هذا الصدد قائمة بان المظاهر الفردية في الحياة النفسية لا تكفي ابدأً ان تكون وحدات مستقلة كائنة — كل مظهر على حده — لتكون حكم صحيح . بل نعلم ان فيها لهذه المظاهر لا يكون صحيحاً الا اذا القنا بينها وعددها وحدات مترابطة تؤلف وحدة كاملة لما اثرها في توجيه تيار النشاط الانساني . نعم اننا لا نفهم هذه الظواهر الا اذا اكتشفنا اسلوب الفرد في حياته تامةً واضحاً واطهرنا ان الغاية الخفية التي توجه الطفولة في سلوكها هي الغاية نفسها التي ترافق الانسان في حياته . ويعني اقرب انه وضع وضوحاً يمت على الدهشة انه من ناحية النشاط النفسي لا يوجد فرق بين نوازع الطفولة وبين نوازع الحياة في ابلان الشباب والرجولة . قد تطرأ تغيرات على الظواهر النفسية ولكنها تغيرات شكلية لا تصدو المظاهر . ان الغاية الخفية الاصلية والحرك الحقيقي للحياة هما في الطفولة وسائر اطوار الحياة واحد لا يتغير فالرجل الذي تأخذ عليه انطلق والذي لا يبرح ذهنه بلفت الى ناحية الشك وسوء الظن بالتعبير والذي يكذب بلا ملل لكي يبش في عزلة ويضع حول نفسه لطاقاً يفصل بينه وبين الناس — هذا الرجل هو نفس الطفل في الرابعة من عمره وان كانت هذه الظواهر تتخذ في الطفولة اشكلاً تافهةً يسهل ادراكها واكتفاء ما وراءها . ومن هنا وضعنا قانوناً لا يجامتا وهو ان يكون مجهودنا متجهاً لدرس طفولة المرضى جيماً . ولذلك استطنا ان نخلق تشاكلاً به نفسر حياة اي انسان ظفرتنا بمعرفة طفولته . فانسرفه عنده وهو رجل مكتمل يكون حقيقة كاملة لحياته وهو طفل . واذا استمعنا لمرض يقص علينا ذكريات طفولته وعرفنا كيف نفسر هذه الذكريات استطنا ان نعلم حقيقة سلوكه وأخلاقه وهو رجل

ونحن في هذا المزرع إنما نستفيد من الواقع وهو ان الفرد لا يستطيع ان يفلت من تأثير الطفولة الاً بأكثر الجهد والعناء. وقليلون جداً الذين استطاعوا ان يغيروا من حياتهم وهم كبار وان كانوا وجدوا انهم بعد تحطيمهم زمن الطفولة في احوال ومراكز مختلفة. وتغيير زرع الحياة في الرجولة لا يتطلب بالضرورة تغيير وحدة البواعث الأساسية للسلوك فالحياة النفسية لا تتغير من قواعدها. فالإنسان يحفظ بطرائقه في السلوك في طفولته وفي رجولته وبذلك نفهم ان غرضه في الحياة لم يطرأ عليه تغيير

وهناك سبب آخر يمتدحنا على حصر اهتمامنا في اختبارات الطفولة اذا اردنا تغيير القالب الذي على مثاله تكون الأخلاق وتوجه السلوك. ولا شأن قط لتغيير اختبارات الرجولة والمؤثرات فيها لأن المهم هو اكتشاف القالب الذي اتخذ طبع الاخلاق به. فاذا فهمنا هذا الطابع استطننا ان نفهم حقيقة اخلاق المريض ونفسنا عليه تفسيراً صحيحاً

ومن هنا كانت حياة الطفولة هي القاعدة الأساسية لفهم الطبيعة الانسانية. ولهذا اتجهنا بأكثر نصيب من ابحاثنا الى فحص الطفولة وتحليلها تحليلاً دقيقاً. وفي هذا الصدد يوجد مجال واسع للباحثين وتوجد مادة لم تحس حتى الآن يمكن ان تكون أساساً لاكتشافات جديدة في علم النفس ولما كانت هذه الابحاث لم تتم لمجرد البحث بل لكي تقدم للانسانية نتيجة ترفع من نسبتها وتسد نواحي النقص فيها فقد وقمنا على اساليب لمداواة النوازع الخلقية السيئة وهكذا اسندت ابحاثنا في حدود علم التربية بدون قصد يرمي الى هذه الغاية. وعلم التربية منجم عظيم لمادة لا تمدد لذين يريدون ان يكتشفوا مجهولات النفس الانسانية لأن علم التربية — كعلم فهم الطبيعة الانسانية — لا يستمد مادته من الكتب بل من صميم الحياة. وقبل ان نتاول هذا البحث بشيء من البسط يجب ان نرد على اعتراض لا بد

ان يكون قد اثير في ذهن القارئ عند تأكيد الفكرة القائلة ان اسلوب الفرد في حياته لا يتغير وان تغيرت ظروف حياته واختلفت احوال الطفولة عن احوال الشباب والكهولة. ومصدر الاعتراض هو انه توجد اختبارات جمة تعرض للانسان في حياته فكيف لا يتغير سلوكه وهنا نرجو ان يفهم ان تفسير الاختبارات يختلف باختلاف الناس ولا يوجد اثنان في الدنيا يفهمان اختباراً بينهما صاحبهما تفسيراً مماثلاً. ومن هنا نفهم ان اختباراتنا وما يقع لنا لا يجتأ بالضرورة اكثر مهارة وأشد يقظة. وصحيح ان الانسان يكتب بعض الخبرة من تجيب بعض المصاعب. وقد يتخذ حيال مصاعب اخرى مسلماً فلسفياً ولكن القاعدة البعيدة الثور في صميم النفس لا تتغير كنتيجة من اكتساب شيء من الخبرة. وسنرى في سياق هذا البحث ان الانسان يخضع اختباراته وتجاربه لاسلوبه في الحياة